AFAQ LUGHAWIYYAH
© PENERBIT UNIVERSITI SULTAN ZAINAL ABIDIN
https://journal.unisza.edu.my/afaq
e-ISSN: 2990-9007

دراسة التناص القرآني في بعض قصائد الإمام الشافعي (٢٠٤ هـ)

[THE STUDY OF QUR'ANIC INTERTEXTUALITY IN SELECTED POEMS OF IMAM AL- SHAFI'I (204 A.H)]

Yahya Abdulbaqy Zakariyah[1] & KhaliluLlah Muh'd Uthman Gbodofu[2]

[1]Former Lecturer and Dean, Students' Affairs Division, Al-Hikmah University, Ilorin, Nigeria

[2]Department of Arabic, University of Ilorin, Ilorin, Nigeria

Corresponding Author: *yahbaqy@gmail.com*

Received: 6/5/2024 *Accepted: 3/8/2024* *Published: 31/8/2024*

ملخص

يعدّ الإمام الشافعي من أبرز الشخصيات الذين تركوا تراثا ضخما في مجال الدين، واللغة، والأدب، وقد ظهرت مقدرته الأدبية وشاعريته منذ نعومة أظفاره فشاب عليه إبداعا وجمالا، وملكة، وذوقا. ولا يخفى أن القرآن الكريم هو المصدر الأساس الذي بنى عليه الإمام ثقافته الواسعة وملكته الفنية، إذ تشهد على هذا مؤلفاته وأشعاره ما يدل على إعجابه البالغ ببلاغة القرآن وعذوبته، وبفصاحة آياته وبراعته، فيتأثر به ويؤثر فيه، وهذه هي الحقيقة التي لاحظها الباحثان في جملة من قصائد الإمام. وقد عقد الباحثان المقالة على حياة الإمام الشافعي، وكما تناولت آثار نظرية التناص للآيات القرآنية الواردة في قصائده من أبعادها اللفظية والتركيبية والفكرية. ومن ثم، استخرج الباحثان جملة من النتائج، ومنها: أن قصائد الإمام تحتوي على اللطائف من الرؤية المعجمية القرآنية الفذة، ثانيا: أن المستوى الذي تأثر فيه الثقافة القرآنية في شخصية الإمام صالح للدراسة في البحث اللغوي والأدبي. وقد وضع الباحثان أهداف المقالة في: دراسة النقد الأدبي المعاصر في قصائد الإمام الشافعي، ثانيا: الإشارة إلى المعاجم القرآنية الواردة في قصائد الإمام، ثالثا: إحياء تراث العلماء القدامى في الدراسة القرآنية. أما المنهج فقد أجرى الباحثان موضوع البحث على المنهج الاستقرائي، والتحليلي، والوصفي.

الكلمات المفتاحية: التناص، القرآن، الإمام الشافعي

Abstract

This paper is an attempt to study the influence of the Qur'an on the style and approach of Imam Shafi'i (204 AH) in Arabic poems. Shafi'i was undoubtedly one of the prominent prolific writers of classical Arabic poems during the golden age of Arabic Literature, his literary work cut across Religion, Literature, and Linguistics. Through his literary work, he displayed his indebt commitment to Qur'anic civilization, which serves as the foundation of his enormous knowledge and capacious civilization. This paper relates the inter-context of words, theory, and styles between the Qur'an and literature as shown in the poetic work of Shafi'i. The objective of the study is to apply Shafi'i poetic work on an area of modern criticism, highlight the level in which Qur'anic Civilization had influenced Shafi'i, and give an account of impute of Qur'anic lexicon in Shafi'i poems. Thus, some of the outcomes of this paper are that the poetic work of Shafi'i is branded with Qur'anic styles of word selection, theoretic adaptation, and approach to communication. The paper adopted Investigative, analytical, and descriptive research methodology.

***Keywords**: Inter-Textual, al-Qur'an, al-Imam al-Shafi'i*

مقدمة

تسعى هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على رؤية التناص الأدبي الذي ورد بين النص القرآني وقصائد الإمام الشافعي. تلك الرؤية الأدبية النقدية التي انطلقت منذ الستينيات على أيدي علماء الغرب الألمان الذين درسوا فكرة النص والقراءة في أشعار علمائهم ونصوص أدبائهم, ومن هؤلاء الألمان أخذ مفكري العرب هذه النظرية وطوروها تطويرا، وطبقوا اتجاهاتها المختلفة على أشعار شعرائهم ومؤلفات علمائهم. وقد قطعت هذ النظرية على أيدي العرب شوطا بعيدا لغزارة آدابهم ولوفرة معلوماتهم. وقصائد الإمام الشافعي من أهم التراث العربي الإسلامي الذي يرجى دراسته بمنظار نظرية التناص لأن الشافعي من العباقرة الفذة التي عرفها الإسلام منذ فجره، وهو من العباقرة الذين صنعتهم البيئة الإسلامية الفاضلة في القرون الأولى من التاريخ الإسلامى المجيد، فلا جناح إذا سار القرآن في دم الإمام، فتأثر به تأثرا تنصيصيا إبداعيا رائعا، إذ إن القرآن في العصر الذي عايشه دستور إلهي يحكم به المسلمون، ويعتمدون على حضارته، ويتثقفون بما جاء فيه من الأحكام واليقظة، والوعي الفكري الخالد. وفي هذا البحث نحاول إستقراء ديوان الإمام الشافعى استقراءا منطقيا، واستيعاب قدرة عقله في قصائده التي تحتوي على أفكار إسلامية صبغها كتاب الله، لفظا، وأسلوبا، وفكرة، وأداء، وأخيلة ونظما. فتحتوي عناصر البحث على النحو التالي: حياته وثقافته، شاعريته، التناص، القرآني في قصائد الإمام الشافعي، الخاتمة، والمراجع.

مشكلة البحث

إن أكثر ما يتبادر إلى أذهان كثير من الباحثين والمفكرين في العصر الحديث أن الإنتاج الأدبي الرفيع الذي صدر من عباقرة اللغة والأدب في القرن الأول من الثقافة العربية ولا سيما ما ورد من قبل العلماء المنتسبين إلى العلوم الشرعية مثل الإمام الشافعي غير قابل للاحتجاج للفنون الأدبية والنقدية المستحدثة، وهذا الزعم هو المشكلة الرئيسة التي استهدفها الباحثان، وغير هذه مما ترد كمشكلة لهذا البحث.

أسئلة البحث

بناء على المشلكة التي سبق ذكرها لهذا البحث، فإن حتما قد تنبعث على ذلك تساؤلات منطقية منها:

١) ما رؤية النقاد والدارسين القدامى والمحدثين في شخصية الإمام الشافعي كالشاعر الحقيقي

٢) ما مدى علاقة الإمام الشافعي والنص القرآني، قراءة، وتدبرا، وتمسكا، ولزاما.

٣) هل يعدّ الإمام الشافعي من رواد الشعر العربي الذين صلح انتاجهم للدراسة والاستشهاد قديما وحديثا.

٤) ما ورد في أشعار الإمام الشافعي من اقتباس، واستعارة يكفي الاستشهاد في فن التناص الأدبي عند النقاد الحديث.

٥) أ يعتبر ما ورد لدى الإمام الشافعي ي في التناص الأدبي فنا، وجمالا, قصده الشاعر ابتكارا منه أم أن التناص وقع عفوا.

أهداف البحث

تأتي أهداف هذا البحث المتواضع تلبيةعلى تلك التساؤلات الواردة للبحث، وفي مقدمة تلكم الأهداف:

١) أن الإمام الشافعي يتمتع بحيوية عالية الملازمة مع النصوص القرآنية الشريفة، ليس في مستوى التلقين والإقراء فحسب، بل حتى الاستعمال بجميع عناصره، فكرة، وأسلوبا، وأداء.

٢) أن قصائد الإمام الشافعي صالحة للتناول في جميع العلوم الدينية والفنون الأدبية واللغوية قديما وحديثا.

٣) أن نظرية التناص الأدبي في النقد الحديث مورود في بعض انتاجات الإمام الشعرية.

٤) إيقاظ ضمير الباحثين وإلفات أنظارهم إلى التراث الأدبي الذي أنتجه العلماء المنتسبين إلى العلوم الشرعية.

منهج البحث

لا يخفى أن البحث بهذا الشكل يتطلب من المنهج البحثي أنسبه وأجل، فقد اختار الباحثان المنهج الاستقرائي لمتابعة قصائد الإمام، واستخراج ما كان صالحا للدراسة في الموضوع. ثم التزم الباحثان المنهج الوصفي والتحليل وفاء لما وعدا به في ذكر أهداف البحث، ومشكلته.

المبحث الأول: حياته وثقافته

ينتمي نسب الشافعي إلى عراقة عربية أصيلة، كان يلقب بأبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، فكان يلتقي أبوه مع النبي صلى الله عليه في سلسلة الأجداد عند (عبد المناف)(Umar & al-Rufa'i, 1985). وأما أمه فتنتمي سلالتها إلى يمانية من الأزد، وقيل من قبيلة الأسد، وهي قبيلة عربية لكن ليست قريش، وهذا يؤكد أن الإمام الشافعي يتمتع بعراقة عربية أصيلة مجيدة صافية (al-Imamy, 2019).

لقد وردت في ولادة الإمام أقوال متعددة، لا سيما في المكان، فمن قيل إن ولادته كانت في عسقلان، وقيل بمني، ولعل الأوثق أن ولادته وقعت في غزة بفلسطين عام ١٥٠ الهجرية، لما ثبت من الباحثين أن أباه هاجر من مكة إلى غزة طلبا للرزق، وتوفي هنالك بعد ولادة الإمام ببضعة أشهر، ومما يؤكد سنة ولادته عام (١٥٠) أنه ولد في نفس اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة. وقد قيل لولادته:دفن الإمام وولد الآخر (al-Imamay, 2019) .

ولقد نشأ الإمام في كتف أمه فقيرا يتيم الأب، لأن أباه لم يزل طالبا للرزق الذي غادر لأجله بوادي مكة حتى خانته المنية، ولما كمل سنتين من عمره، أعادته أمه إلى أرض وطنه بمكة، لينشأ تحت أقرانه حتى لا يضيع نسبه الجليل. –رحمهم الله جميعا رحمة واسعا-.

مرحلة الأخذ: يمثل القرآن الكريم أبرز ثقافة احتواها الإمام منذ صباه، حيث أتم الحفظ وهو ابن السبع، فانتشرت قراءته أرجاء المدينة بشجو صوته، حتى يقول بعضهم: كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض، قوموا إلى هذا الفتى المطلبي يقرأ القرآن، فإذا أتيناه (يصلي في الحرم) استفتح القرآن حتى يساقط الناس، ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته، فإذا رأى ذلك أمسك من القراء (al-Imamy, 2019).

ولم يطل عليه الأمد حتى فتح عينيه على تعلّم اللغة والأدب، فأخذ من قبيلة هذيل العربية اللغة والفصاحة، لكون هذيل من أفصح قبائل العرب. ولقد تركت هذه البداية الطيبة على ثقافة الإمام أثرا كبيرا فارتقت فصاحته، وعظمت بلاغته، وصقل تفكيره، ومن إعجاب الأصمعي له، قوله: "صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس" (al-Imamy, 2019).

ولما نال في اللغة والأدب ما شاء الله عليه أن ينال، انصرفت أمه عينيه إلى علم الشريعة وفنونه، فأدخلته على الإمام مالك، فحفظ الموطأ للإمام وهو ابن ثلاث عشرة سنين تقريبا من عمره، وتابع ملازمة إمامه في الفقه على مدة ست عشرة سنين حتى توفي الإمام مالك (٥١٦٩).

ولم يقفل الشافعي باب أخذه على مالك، فقد اتصل كذلك بنبذة من كبار علماء عصره، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، حيث أقرأه كتبه، وألقنه علم أهل الرأي.

هكذا أبدى الإمام الشافعي إخلاصه في الأخذ، حيث لم يتعصب على إمامه الأول مالك، فيأخذ منه وحده، وينقلب عن أبي حنيفة وأنصاره، ولا يأخذ منهم شيئا، لما جرى بين الإمامين من جدل علمي قوي، ونقاش طويل يدعمه الاحتجاج بالرأي، والاحتجاج بالنقل والتواتر، تلك هي سنة السلف الصالح في طلب العلم، ذلك بأنهم يسعون وراء الحق، فلا تنتابهم العصبية القاتلة.

مرحلة الأداء: يقع عهد وفاة الإمام مالك موعد الانطلاق لمرحلة الأداء للإمام الشافعي، وكانت مناطق نجران، وبغداد، ومكة، ومصر، أقوى منطقة شهدت عبقرية الشافعي في تدريسه، وتلقينه، ومنهجه.

وفي نجران كان الشافعي واليا عليها مباشرة بعد وفاة الإمام مالك، وعلى الرغم من عدالته، فشى بعض معاصريه إلى الخليفة هارون الرشيد، فاستدعاه الخليفة حتى سمع إلى احتجاجاته، فاعترف ببراءته، وصلاح موقفه، ونهجه، فوضعت الحرب أوزارها، فازدادت شهرته بين المناطق.

ثم أقام بمكة بعدئذ نحوا من تسع سنوات ينشر مذهبه من خلال حلقات العلم التي يزدحم فيها طلبة العلم في الحرم المكي، ومن خلال لقاءه بالعلماء أثناء مواسم الحج، وتتلمذ عليه في هذه الفترة الإمام أحمد بن حنبل (al-Imamy, 2019).

ثم جاء دوره في بغداد سنة (١٩٥هـ)، فكان له بها مجلس علم يحضره العلماء ويقصده الطلاب من كل مكان، مكث الشافعي سنتين في بغداد، فألف خلالها كتابه (الرسالة)، ونشر فيها مذهبه القديم، ولازمه خلال هذه الفترة أربعة من كبار أصحابه وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفراني، والكرابيسي (al-Imamy, 2019).

وتقع مصر من أبرز مناطق عمرها الإمام، وذلك في عام (١٩٩هـ)، وقد سبقته شهرته إليها، وكان في صحبته تلاميذه الربيع بن سليمان المرادي، وعبد الله بن الزبير الحميدي، حيث نزل بالفسطاط ضيفا على عبد الله بن عبد الحكم، إذ هو من أصحاب مالك، ثم بدأ بالقاء دروسه في جامع عمرو بن العاص فمال إليه الناس، فجذبت فصاحته وعلمه كثيرا من أتباع الإمامين أبي حنيفة ومالك، وبقى في مصر خمس سنوات قضاها كلها في التأليف والتدريس والمناظرة والرد على الخصوم، وفي مصر وضع الشافعي مذهبه الجديد وهو الأحكام، والفتاوى التي استنبطها في مصر، وخالف في بعضها فقهه الذي وضعه في بغداد بالعراق، وصنف في مصر كتبه الخالدة التي رواها عنه تلاميذه.

كان تلميذه الإمام أحمد بن حنبل، أوصف الناس للشافعي، حيث أعلن في كتابه (الشافعي ملامح وآثار) كيفية ظهور شخصية الشافعي، ومنهجه في الفقه، ذلك المنهج الذي هو مزيج من فقه الحجاز وفقه العراق، ذلك المنهج الذي انضجه عقل متوهج، عالم بالقرآن والسنة، بصير بالعربية وآدابها خبير بأحوال الناس وقضاياهم، قوي الرأي والقياس (Afeef, 1974). ويقول فيه الجاحظ: "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم، فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي (الشافعي) كأن كلامه ينظم درا إلى در" (Aeef, 1974).

شاعريته

كان للإمام موهبة شعرية راقية، حتى لولا ميله الخالد إلى علوم الدين وفروعها، لعُد فحلا من فحول الشعراء العرب الأقحاح، يقول في بيت له (al-Shafi'i, 1974):

ولولا الشعر بالعلماء يزري ❋ لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومهما يكن من أمر، فإن الإمام من الأفذاذ الذين فتحوا أعينهم على القرآن، وأخذوا من صناديد العرب، وأفقهوا من جهابذ الفقهاء، وصنعتهم البيئة الجدلية الكلامية الشيقة، وتأثروا باتجاه أدبي لعصره، الاتجاه الذي دار بين تيارين جليلين: تيار جاهلي موروث، وتيار إسلامي مستحدث، فحق على الإمام الشافعي ومن على شاكلته أن تأتيهم الألفاظ كلما دعوها، وترادفهم المعاني كلما صبغوها، وتلبيهم الأفكار كلما نادوها نداء الفصحة، والأخيلة، والصور.

وبناء على هذا فقد أتت أشعار الشافعي تأييدا لتلك الخصائص الفكرية والفنية التي تنفجر من ينابيع شخصية الإمام، سواء في ألفاظ القصائد، أو معانيها، أو أفكارها، أو أخيلتها أو فلسفتها.

وتظل الحكمة والحكم أقوى فلسفة تتجلى في معظم أشعار الإمام، حتى إنك لا تمرّ على صدر أو عجز إلا وتلقى فيه أروعا من الحكم، وأجدرا من العبر والموعظة، ولم لا فإن الإمام من الأعلام الذين امتزج بدمهم وعرقهم كلام الله العزيز، فلا جناح إذا كانت أشعار الإمام مليئة بعنصر فطري معنوي فتح منهجه كتاب الله تعالى. قال عنه المبرد: "كان الشافعي أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات"(Murad, 2006). وقال الإمام أحمد بن حنبل: "ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منّة"(Murad, 2006). والسر في شاعريته أنه أقام في البادية سنين يحافظ على فصاحته في العربية فبرع فيها وفي قول الشعر قبل انتقاله إلى الفقه الإسلامي.

المبحث الثاني: التناص القرآني في قصائده

للتناص معاني مختلفة عند الباحثين المحدثين، يرى بعضهم أنه لا يخرج عما تسميه الأدباء القدماء بالسرقات والتضمين والاقتباس (E'zam, 2001). والبعض الآخر يرى أن مصطلح التناص أكثر تعقيدا من ذلك (Salam, 2010). إذ يذهب جوليا كرستيفا إلى أن كل نص إنما هو فيسياء من عدة نصوص اندمجت فيه (al-Za'by, 2000). وهذا عكس ما نادت به البنيوية من كلام على تماسك النص وانغلاقه، أو ما كان يتحدث عنه في النقد التقليدي، من أن النص وحدة متماسكة يمكن فهمها والسيطرة عليها (Qussab, 2007). فالنص في نظرية علماء التناص –مفتوح للدخول النصوص الأخرى إليه، لأنه يجتمع من أصل غير واحد. فالتناص عند الأدباء – ولا سيما الشعراء منهم- أمر واقع لا محالة وهو عندهم –كما يقول محمد فتاح-: "بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان، فلا حياة له من دونهما، ولا عيشة له خارجهما (Qussab, 2007). ولهذا نحن مع أهل الرأى أن التناص هو اقتباس أو تضمين لنصوص إما دينية أو أدبية أو تراثية أو غيرها، بحيث تصبح جزءا من النص،

وتندمج فيه(Qussab, 2007). وأما التناص في قصائد الإمام الشافعي فينقسم إلى ثلاثة أقسام: التناص اللفظي التناص التركيبي والتناص الفكري/الفلسفي.

المبحث الثالث: التناص اللفظي

كان للقرآن العظيم فضل دائم على اللغة العربية في كل طبقة من طبقات الكلام في الألفاظ، أم الأساليب أو المعاني، إذ الواقع أن الألفاظ العربية حظيت حظوا كبيرا في المعجم القرآني، سواء في تزويد عدد كلمات العربية، مثل: النفاق، والشرك، أو في توسيع دلالة بعض المفردات على ما كانت عليه العرب من ذي قبل، كما حدث للطهر، والضلال، والهدى. أو ما بدلها القرآن بألفاظ أخرى، كالإمام، والشهيد، وما إلى ذلك.

وقد التزم الإمام الشافعي هذه الوجوه اللغوية في أشعاره، معتمدا على منهج المعجم القرآني في استخدام الألفاظ، فمن الألفاظ القرآنية التي تلونها الشافعي في أشعاره، (خبت) و(حرام) و(التقيّ) و(زكاة) و(غرور) و(جيفة) و(كبّر) و(خصاصة) و(إمام) و(هاد) و(دعوة) و(العبادة) و(الجنة) و(النار) إلى جانب عديد من المفردات القرآنية التي تناولها الفقيه الشاعر. والمقطوع به أن الشاعر لم يقف عند حدود نقل تلك المفردات من الكتاب فقط وتلصيقها في الأبيات، فإنه يستخدمها في أنسب مقامها، سواء في الألفاظ التي كان القرآن واردها، أم التي كانت العرب تعرفها لكن القرآن توسع دلالتها، ومما أحدثه القرآن وتأثر به الإمام في أشعاره، (حرام) و(التقيّ)، يقول الإمام الشافعي (al-Shafi'i, 1974):

فدع عنك سوءات الأمور فإنها ❋ حرام على نفس التقيّ ارتكابها

فلفظي (حرام وتقي) لم يكونا في تأليف العرب، بل أحدثهما القرآن ليسوقا دلالة فطرية لم تكن على علم العرب من قبل، دينيا، أو إجتماعيا، أو أدبيا. ومنه أيضا (al-Shafi'i, 1974):

وما هي إلا جيفة مستحيلة ❋ عليها كلاب همهنّ اجتذابها

فلفظي (جيفة) مصطلح قرآني، آثره الشاعر في هذا البيت وصفا دقيقا لطعم مرّ الدنيا، وهو مجاز مرسل ما أحسن وقوعه في البيت، اتساقا بالبيتين السابقين، الذي يقول فيهما الشاعر (al-Shafi'i, 1974):

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ❋ وسيق إلينا ـــذبها وعـذابها
فلم أرهـا إلا غرورا وباطـــلا ❋ كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
ومـــا هي إلا جيفة مستحيلة ❋ عليها كـــلاب همهنّ اجتذابها

وأما من ناحية توسيع دلالة الألفاظ، فقد كثر هذا في أشعار الإمام، ومنه قوله (al-Shafi'i, 1974):

ومن فاته التعليم وقت شبابه ❋ فكـبّـــر عليه أربعا لـــوفـــاتـــه

فلفظ (كبّر) في البيت له سياق آخر في المعجم القرآني، خلاف ما تعرفه العرب للكلمة منذ أيامها القديمة، فلفظ (كبّر) فعل أمر يراد به ركن هام من أركان العبادة وهو الصلاة. ومنه أيضا (al-Shafi'i, 1974):

ولتخبرنّ خصاصتي بتملقي ❋ والماء يخبر عن قذاه زجاجه

فقد تأثر الشاعر بالقرآن في لفظ (خصاصة) ليراعي به نفس المعنى الذي سيقت إليه الكلمة في الآية القرآنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ (سورة الحشر، الآية ٩) ولتدقيق النظر للكلمة في الموضعين يورد التناسق الدلالي القوي، لأن السياق في الآية وما ورد في البيت يسعان وراء (العفة والصبر). وفي موضع آخر يقول الشاعر (al-Shafi'i, 1974):

لكن توليت غير شك ❋ خير إمام وخير هادي

من المتوقع أن لفظين (إمام وهادي) ليسا غريبين في معجم العرب، لكنهما يدلان على التقدم والهداية في القاموس العربي، وأما في المعجم القرآني فيتجهان نحو سياق آخر، إذ الإمام في القرآن أو السنة هو الذي يؤم الناس في الصلاة، أم ذلك المسؤول عن أحوال المسلمين، أما الهداية، فضد الضلالة، وهو معرفة حقوق الله في العبادة والطاعة، ولا يسعى إلى معرفة مدلول الضلالة إلا من كان على هدى من ربه.

ومن الألفاظ القرآنية التي تبادلها الشافعي، هو (الجنة) و(النار)، فقد استخدمها في نفس الأسلوب الذي يعتاد عليه القرآن، وهي من الزوجية اللفظية في القرآن الكريم، كالهداية والضلالة، والظلمة والنور، الرحمة والعذاب، البشارة والإنذار، حيث لا يرد إحداهما إلا وعاقبتها الأخرى، فلا ترد

الجنة مثلا إلا والنار تعقبها، وإذا سمعت النار، كذا تعقبها الجنة، يقول الشاعر (al-Shafi'i, 1974):

إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ❋ فينبغي لك أن لا تأمن النارا

انظر كيف استطاع الشاعر أن يجمع قوة اللفظين في بيت واحد، والمعنى مرتبط بعضه بعضا، ومغزى آخر في هذا البيت هو أن وقوع الجنة جمعا في صدر البيت وورود النار مفردا في العجز، ولعل الهدف في ذلك أن الإنسان دائما خلق في كبد فيرجى تعدد نعمه في كل حين وآخر، وأما العذاب فمهما يكثر مصادره فطعمه واحد للإنسان.

التناص التركيبي

تمتلئ إنتاجات الإمام الشافعي الشعرية بروائع من التراكيب، وبدائع من الأساليب التي أخذ تنسيقها من كلام الله، فمنها ما كانت على صورة الإقتباس، ومنها التناص، من القرآن نصا حرفيا، ومنها ما يظهر عليها بعد الزيادة أو تبديل خفيف، وتتجلى في الأخرى تراكيب أسماء الأعلام، كما يدخل حينا آخر باب المدح والثناء، أو الهجاء، ومما اقتبسه الشاعر مباشرة من أسلوب القرآن، ما ورد في هذا البيت (al-Shafi'i, 1974):

بعهد قديم من ألست بربكم؟ ❋ بمن كان مجهولا فعرّف بالأسما

فجملة (أ لست بربكم) نقله مباشرة من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٧٢) وهو تناص جليل جاء تلبية لنداء ربط معنوي بين أرباب الأبيات السابقة واللاحقة. وحينا يضع الإمام صدر بيته كله مقتبسا من آية قرآنية، كما ثبت في قوله (al-Shafi'i, 1974):

فمنهم شقي ومنهم سعيد ❋ ومنهم قبيح ومنهم حسن

فصدر هذا البيت صورة كاملة لجزء من آي الذكر الحكيم: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (سورة هود، الآية ١٠٦) حتى وإن لم يوافق السياق بين الآية والبيت، فإن الشاعر

أحسن اقتباسه ليسد ثغرة المعنى الذي سيقه في القصيدة. ويتأثر شاعرنا الجليل بأسلوب القرآن، لكن يلم فيه بعض تبديل أو زيادة، ومن ذلك قوله:

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ❋ ودافع ولكن بالتي هي أحسن

في هذا البيت ترى أن الشاعر أخذ من آيتين قرآنيتين كريمتين في صدر البيت، أخذ من قوله تعالى: ﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، الآية ١٩) وفي العجز أخذ من قوله تعالى: ﴿...ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾. (سورة فصلت، الآية ٣٤)، لكن السياق في البيت جعل الكلام كله متسلسل كأنه من رحم واحد. ويقول في موضع آخر من أشعاره (al-Shafi'i, 1974):

ولا تمشين في منكب الأرض فاخرا ❋ فعمّا قليل يحتويك ترابها

انظر كيف أحسن الشاعر تحويل تركيب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ...﴾ (سورة لقمان، الآية ١٨) إلى بيت شعري حتى استقام الوزن والمعنى على السواء، فصرّف الفعل المضارع (يمشي) إلى المؤكد (يمشين) ثم أدخل لفظ (منكب) عليها، وأتى بصفة فاخرا بدلا من مرحا، كل هذا دلالة واضحة على أن الشافعي ذو عقل واع يتصرف به كيف شاء في حقائق الأمور. ويقول في معرض أشعاره (al-Shafi'i, 1974):

وجوزي بالأمر الذي كان فاعلا ❋ وصبّ عليه الله سوط عذابه

متأثر في عجز البيت بقوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (سورة الفجر، الآية ١٣)، كاد الشاعر أن ينقل الآية برمتها، لولا إثارته ضمير المفرد في قوله (عليه) بدلا من (عليهم) في الآية، ولفظ الجلالة (الله) محل (ربّك) وضمير (ه) في عذابه، تتمة للبيت لمراعة القافية التي بدأت بها القصيدة.

وحينا آخر يميل شاعرنا الفقيه إلى المنهج النبوي الشريف، فيأخذ من رونق أسلوبه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك تائيته التي يقول فيها (al-Shafi'i, 1974):

إذا رمت المكارم من كريم ❋ فيمّم من بنى لله بيتا

فجملة (من بنى لله بيتا) في البيت مقتبسة من قوله صلى الله عليه وسلم من ((من بنى لله بيتا بنى الله بيتا في الجنة)). ويقول أيضا (al-Shafi'i, 1974):

إذا أصبحت عندي قوت يومي ❋ فخلّ الهمّ عني بل سعيد

تأثر الشاعر في هذا البيت بالحديث الذي رواه... عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "من أصبح مؤمنا عافيا في بدنه آمنا عنده قوت يومه فكأنما حذيت له الدنيا بحذافيرها". انظر كيف أضاف الشافعي معنا جليلا إلى ما نقله من رسوله الكريم، فأحسن الإضافة.

التناص الفكري

أفاد الإمام الشافعي من أسلوب القرآن الكريم في التصوير الدقيق، والأخيلة التي تنبع حلقة التفكير السديد، ومنتدى المنطق السليم، على الرغم من أن تصوير القرآن تصوير خالقي، وتصوير الإمام تصوير مخلوقي، لكن الملازمة القوية أتت تفكير الإمام قوة الديباجة، وسلامة المنطق، فأصبح يجري منطق القرآن وفلسفته مجرى الدم في جسد حامله، ومن أبرز المنطق القرآني لدى الإمام ما ورد في همزيته التي يقول فيها (al-Shafi'i, 1974):

ومن نزلت بساحته المنايا ❋ فلا أرض تقيه ولا سماء

وعلى دقة النظر في البيت يظهر جليا أن الشاعر استأثر بمنطق قرآني ورد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سورة النحل، الآية ٦١) وهي فكرة الأجل، وما يكابده من ظرف المكان والزمان، ويقول في موضع آخر متمسكا بسنة القرآن في التفكير والتنظير (al-Shafi'i, 1974):

ولرب نـازلـة يضيق لها الفتى ❋ ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ❋ فرجت وكنت أظنها لا تفرج

لا شك أن الفكرة التي تحملها هذين البيتين بناءة على الزهد، أو ما يثبته قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾. لأن البيت شرح دقيق عن تفريج الهم والكرب، نتيجة توكل صاحبه على مولاه.

وتجري فلسفة الشاعر حينا آخر نحو فلسفة إلهية في تصوير بعد الأقضية الغيبية التي لا يستطيع عقل بني الإنسان تصورها، كما حدث في إحدى داليته التي يقول فيها (al-Shafi'i, 1974):

تمنّى رجـال أن أموت وإن أمـت ❋ فتلك سبيل لست فيها بـأوحـد
وما موت من قد مات قبلي بضائري ❋ ولا عيش من قد عاش بعدي بمخلدي

لا ينكر أحد هذه الفلسفة الإلهية التي وردت في أكثر من آية في القرآن الكريم، ومنها ما وردت في سورة الأنبياء، الآيتان ٣٤-٣٥: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾.

خاتمة

استطاع هذا البحث الوجيز أن يدرس حياة الإمام الشافعي حيث أشار إلى ولادته، ونشأته والمكان الذي نشأ فيه والبيئة التي ترعرع عليها، وناقش بعد ذلك شاعرية الإمام الشافعي بالإيجاز، ثم أمعن النظر في نظرية التناص وكشف اللثام عن معانيها عند العلماء والأدباء. وقد قسم البحث تلك النظرية عند تأثير قصائد الإمام الشافعي بالقرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام وهي: التناص اللفظي، والتناص التركيبي والتناص الفكري، وفي هنا رأينا أن الإمام شاعر كبير من الشعراء الإسلاميين الذين اعتمدوا اعتمادا قويا على كلام الله تعالى من ناحية الألفاظ والتراكيب والمعاني والصور والأخيلة، وفي ناحية التفكير والتنظير والفلسفة والمنطق، ولهذا أخذ هذا الجيل يدرسون قصائده ويحملونها على الميزان النقدي القديم والحديث، وسيدرسونها كذلك كابرا عن كابر حتى تقوم الساعة. وفي خلاصة القول، يبدو في هذا البحث المتواضع أن القرآن الكريم امتزج بدم الإمام الشافعي امتزاج الماء بالراح، لا في حياته الشخصية فحسب بل حتى في حياته الفنية كذلك.

REFERENCES

al-Imam, S. Qasim. (2013). *Min Seerat Imam a-Shafi'i.* Mauqiu Wahatul Adab.

Muhammad Ezam. (2001). *an-Nas al-Gai'b Tajaliyaat at-Tanas fi al-Shi'r al-'Araby,* Manshuraat Ittihad al-Kutaab al-'Arab, Damascus.

al-Rufa'i A. & Umar A. (1985). *al-Mutoliat al-Saudiyyaha* Wizaratul Ma'arif. al-Mamlakatul 'Arabiyyah as-Sa'udiyyah.

Saeed Sulam. (2010). *at-Tanas al-Turathy ar-Riwayat al-Jazairiyah Namuzajan.* A'lam al-Kutub al-Haditha.

Al-Shafi'i, M.Idrees. (1974). *Deewnu Imam al-Shafi'i.* Tahqeeq wa Ta'leeq Muhammad Afeef.

Waleed Qussab. (2007). *Manahij an-Naqd al-Adaby al-Hadeeth: Ru'yah Islamiyyah..* Darul-Fikr, Damascus.

Al-Za'iby, Ahmad. (2000). *at-Tanas Nazariyan wa Tatbeeqan.* Mu'asasatu Umraan lil- Nashr wa Tauzi'i, Oman.